(المجلس الثامن)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المتن:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الصحيحين واللفظ لمسلمٍ عن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي وفي بيتي قال: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

الشرح:

أورد الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم: [**تُحفة الأخيار**] في جملة بيانه لفضل الذكر والدعاء أورد هذا الحديث -حديث أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- عندما أتى إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: علمني دعاءً أدعو الله به في صلاتي وفي بيتي، هُنا لفتة مهمة أشير إليها لأهميتها وعِظم شأنها، تأمل هنا صدِّيق الأمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وهو خير أمة محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل هو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه خير أمم الأنبياء، أفضل الناس بعد الأنبياء أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم عمر.

قد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ عَدَا النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ**»؛ وهذا الحديث هو حديثٌ ثابت يدل على أن أبا بكرٍ وعمر أفضل أمم الأنبياء، وأنهما أفضل الناس بعد الأنبياء، ولقَّبه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصدِّيق، والصدِّيق رتبةٌ عليه ذكرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعد رتبة الأنبياء، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النساء، من الآية:٦٩].

فأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صديق الأمة وخيرها، وهو من هو في علمه وفهمه وعبادته ودعاءه، وإقباله على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ثم تأمل هنا يأتي إلى النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ويقول: يا رسول الله! علمني دعاءً أدعو الله به في صلاتي.

ونظير ما فعل أبو بكر فعل غير واحدٍ من الصحابة، علَّم النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ علي بن أبي طالب عندما طلب من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يعلمه دعاءً يدعو به، علمه أن يقول: «**اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي**»؛ وفي رواية قال: «**قُلِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى والسداد**»؛ ولما جاءه عمه العباس وقال: يا رسول الله! علمني دعاءً أدعو الله به؟ قال: «**سَلْ اللهَ الْعَافِيَةَ**»، ثم جاءه من الغد، وقال: يا رسول الله! علمني دعاءً أدعو الله به، قال: «**سَلْ اللهَ الْعَافِيَةَ**»، ثم جاءه الثالثة قال: علمني دعاءً أدعو الله به، قال: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ سَلْ اللهَ الْعَافِيَةَ**».

الشاهد: أن الصحابة مع جلالة قدرهم، وكمال علمهم، وحُسن فهمهم، وقوة إقبالهم على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ كانوا يأتون النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ويطلبون منه أن يُعلِّمهم الدعاء، وهذا فيه لفتة إلى أهمية الدعاء المأثور، وعِظم مكانته في قلوب السادة الأخيار، والأئمة الأفاضل، وأهل العلم، وأهل النُّبل، يعرفون قدر دعوات النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ويعرفون مكانتها فها هم الصحابة، الصحابي تلو الآخر يأتون إلى النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يطلبون منه أن يُعلمهم الدعاء.

أليس أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لديه القدرة أن يُنشئ دعاءً يدعو الله به، أو ليس له قدرة؟! علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أليس عنده قدرة يُنشئ دعاءً؟! العباس؟! لديهم قدرة، ولديه قدرة أن يُنشئ دعاء صحيح المعنى، كامل المبنى، قويم الدلالة، يطلب فيه من خيري الدنيا والآخرة.

لكن مع هذه القدرة يأتي إلى النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ويقول: علمني، علمني دعاءً أدعو الله به في صلاتي، عندما تُقارن بين هؤلاء الأخيار، وهؤلاء الأماثل الأفاضل من سادات الأمة وخيارها، عندما تُقارن بينهم وبين الذين بلوْا الأمة بكتب في الذكر والدعاء، ملؤها بالدعوات المتكلفة، والأدعية المخترعة المنشأة التي أنشؤوها من قبل أنفسهم، وخصصوا لها أوقاتًا.

انظر أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: (**علِّمني دعاءً أَدعو الله بِهِ**)؛ ثم تجد من بعض الدعاة أو من بعض المؤلفين وبعض الكُتَّاب يكتبوا كتبًا تراها كثيرًا بأيدي الناس، يمسكونها بأيدهم إذا دخلوا هذا المسجد، وإذا دخلوا المسجد الحرام، ومكتوب فيها أدعية مؤقتة ومخصصة، فيها إذا دخلت المسجد تقول كذا، وإذا بدأت بالطواف تقول كذا، الشوط الأول كذا، الثاني كذا، الثالث كذا، الرابع كذا، عندما تشرب زمزم تقول كذا... إلى آخره، مخترعة؛ اخترعوها من عند أنفسهم وبلوْا بها الناس، وأصبح بعض العوام وبعض الجُهَّال ربما يظن أن

عمرته أو حجته لا تتم إلا إذا أمسك بيده كتيبًا من تلك الكتيبات، وهي في الغالب الأعم ما تخلو من الخطأ والانحراف والتكلف، والمباينة لهدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

عندما يقرأ المسلم أمثال هذا الحديث، صديق الأمة يأتي إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويقول: علمني دعاء أدعو الله به، حقيقةً سيجد نفسه يطَّرح تلك الكتب، ويلقيها جانبًا ولا يُلقي لها بالًا، وسيقبل على الدعوات المأثورة عن النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يدعو بها، يدعو بما صحَّ وثبت عن رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن دعواته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمعت خيري الدنيا والآخرة، كان يُعجبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا دعا أن يدعو بكوامل الدعاء وجوامعه، وأوتي جوامع الخير، وجوامع الكلم، وجوامع الدعاء -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

فالواجب أن يُقبل المسلم على دعواته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، نعم إذا عرضت لك حاجةٌ ما سلها الله: اللهم نجحني، اللهم ارزقني الزوجة الصالحة، اللهم خلصني من هذه المشكلة، إلى آخره يجوز لك ذلك، لكن المشكلة في الأدعية المرتبة الموظفة لأوقات، لأعمال، لأحوال، وتُكتب للناس، وتُنشر بينهم على أنها جزءٌ من شعائر الحج، أو جزءٌ من شعائر دخول المساجد وبيوت الله إلى غير ذلك مما بُلي به الناس من تكلفات المتكلفين، وتخرصات المتخرصين الذين شغلوا الناس بمخترعاتهم ومنشآتهم عن سنن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهديه والصحيح الثابت عنه، شغلوا الناس بالأدنى وصرفوهم عن الذي هو خير، شغلوهم بالأدنى وصرفوهم عن الذي هو خير، أليس خير الهدى هدى محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟! إذًا لماذا يشغلون الناس بأشياء هم يخترعونها وينشئونها ثم يصرفونهم عن السُّنَّة وعن هدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟!

حقيقةً عندما نقرأ هذا الحديث ونظائره: علمني دعاءً أدعو الله به، من الذي قال: علمني؟ أبو بكر، مَنَّ الله عليه بكمال في العلم، والفقه، والفهم، والحرص، والصدق، والإيمان، وحُسن الإقبال على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثم يأتي ويقول: علمني دعاءً أدعو الله به، هذا أيضًا فيه تواضع للحق تمثل في هؤلاء الأخيار، يتواضعون ويتطامنون للحق والهدى ودين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بينما بعض الناس يرى أن ما كتبه، أو ما كتبه أشياخه هو خير، بل بعضهم فضلوا أدعيةً كتبها بعض أشياخهم على قراءة القرآن، واشترطوا لها شروطًا لا تُشترط في قراءة القرآن، فهذا حقيقة يعطينا فائدة عظيمة جليلة مباركة، تجعل كل واحدٍ منا يُقبل إقبالًا صحيحًا على السُّنَّة.

إذا كان أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: علمني دعاءً أدعو الله به، من خلال هذا المنطلق لسان حالنا ماذا ينبغي أن يقول؟ يا إخوان مرةً ثانية إذا كان صديق الأمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول هنا: **(يا رسولَ اللهِ علِّمني دعاءً أَدعو بِهِ)**؛ علي، العباس غيرهم آخرون، يأتون إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويُعلمهم الدعاء، إذا كان هذا لسان قالهم وحالهم،

فماذا ينبغي علينا؟ أليست كتب السُّنَّة الصحيحة مبثوثة؟! أليست متداولة؟! أليست بأيدينا؟! أليست من اليسر والسهولة أن نقف عليها؟! إذًا لماذا لا نأخذ عنها ونتلقى منها وندع تلك الكتب التي عمت وطمت وشغلت الناس عن الحق والهدى، فهذه فائدة عظيمة جدًا نستفيدها من قول صديق الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: (**علِّمني دعاءً أَدعو بِهِ**).

قال: (**في صلاتي وفي بيتي**)؛ قوله: (**في صلاتي**)؛ هذا يفيدنا أن هذا الدعاء الذي علَّمه إياه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُستحب أن يُقال في الصلاة، أين يُقال؟ من العلماء من قال: أنه يؤتى به في السجود؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمر بالإكثار من الدعاء في السجود، وقال: «**إِنَّه قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»، ومن العلماء من قال: إنه يؤتى به في نهاية التشهد وقبل السلام؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ مِنَ الدُّعَاءِ مَا شَاءَ**»، فمن أهل العلم من قال: إنه يؤتى به في السجود، ومنهم من قال: أنه يؤتى به في آخر الصلاة قبل السلام، ومنهم من قال: الأمر في ذلك واسع؛ سواءً أتى به في سجوده، أو أتى به قبل السلام. قال: (**في صلاتي**).

قال: (**وفي بيتي**)؛ هذه الزيادة ثابتة في مسلم، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (**وهذا لفظ مسلم**)؛ هذه الزيادة ثابتة في صحيح مسلم، وهي تفيدنا أن هذا الدعاء كما أنه من الدعوات المقيدة التي يحسن ويُستحب أن تُقال في الصلاة، يفيدنا أيضًا أنه من الدعوات المُطلقة التي يدعو بها المسلم متى ما شاء في بيته، أو في مشيه له أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الدعوة العظيمة، «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

هُنا صديق الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (**يَا رسولَ اللهِ علِّمني دعاءً أَدعو الله بِهِ**)؛ لك هنا أن تقف متأملًا: من الذي طلب هذا الدعاء؟ هل هو شخص عادي من آحاد المسلمين؟ أو هو خير أمة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يا أخي تأمل من الذي قال: علمني دعاءً أدعو الله به؟ هل هو فردٌ عادي من آحاد المسلمين، أو هو خير أمة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، المشهود له من نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالرتبة العلية: الصديق، وشهد له بالجنة، كان جالسًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: «**أبو بكرٍ في الجنَّةِ، وَعُمر في الجنّة، وعثمان في الجنّةِ، وعليٌّ في الجنّةِ**»، وعدَّ عشرةً من الصحابة، كلهم قال: هم في الجنة، شهد لهم بالجنة وأخبر بأنه صديق الأمة، وجاء عنه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أحاديث كثار في بيان فضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تأمل هنا صديق الأمة يأتي إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويقول: (**يا رسولَ اللهِ علِّمني دعاءً أَدعو الله بِهِ**)؛ فيقول له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**)؛ قف عند هذه، قال: (**قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ**

نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا)؛ هذه دعوة علَّم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صديق الأمة أن يدعو الله بها في صلاته، وأن يُكثر منها، يقولها في صلاته ويقولها في بيته، **(اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا)**؛ هذا يفتح لك باب، باب بمعرفة التقصير الذي عندك، كثير منا ملئ بالتقصير، ملئ بالخطايا، ملئ بالذنوب لكن ما يشعر، ربما لو قال: «**إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**»؛ ربما يتكاثر هذه الكلمة على نفسه، «**إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**»؛ ربما يرى نفسه أنه ما حصل منه ظلمٌ لنفسه، هذا الظلم الكثير، وربما أيضًا لا ينشط لقولها.

فانظر هنا صديق الأمة يعلمه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن يقول: **(اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا)**؛ ظلم النفس مراتب، ودرجات، وأحوال، وهو يتفاوت بأحوال الناس ومقاماتهم، وظلم النفس هو تقصير العبد في جنب الله، وقوعه في الخطأ، وقوعه في الذنب، وقوعه في الخطيئة، وأيضًا تقصيره في تحقيق الإيمان ومراتبه ودرجاته، كل ذلك من ظلم النفس، الله جَلَّوَعَلَا خلق نفسك وأوجدها لتحقق الإيمان، وتكمل الدين، فقصورك عما خلقت لأجله ظلمٌ لنفسك.

أنت تظلم نفسك عندما تقصر بها عما خُلقت له، وعما أوجدت لتحقيقه من الإيمان، والعبادة، والطاعة، والمحافظة على طاعته وذكره وشكره، إذا قصرت بنفسك عما خُلقت له ظلمتها؛ لأنها خُلقت لتكون مطيعةً لله، مؤمنةً لله، قائمةً بأمره، فإذا نزلت بها عما خُلقت له ووجدت لتحقيقه ظلمتها.

وبنو آدم كل واحدٍ منهم خطَّاء، حتى من يجتهد في بلوغ عالي الدرجات ورفيع الرتب لا بد من الخطأ، والنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أشار إلى هذا في الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره عندما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**»، يعني: مهما اجتهدت في أن تبلغ درجة الاستقامة في أعلى رتبها وأرفع درجاتها لن تحصي لا بد من التقصير.

أيضًا يوضح هذا المعنى الحديث الآخر، عندما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ**»، لا بد من الخطأ، لا بد من التقصير، لا بد من وجود الزلة العثرة الذنب الخطيئة، لا بد من ذلك، مهما اجتهد الإنسان في تتميم نفسه في تكميلها، في البلوغ بها إلى عالي الرتب ورفيع الدرجات لا بد من التقصير.

ولهذا أرشد النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إلى الاعتراف بالتقصير، واعتراف العبد بتقصيره هذا هو بوابة التوبة، المشكلة عندما يُذنب الإنسان ولا يعترف أنه مذنب، ولا يبوء بذنبه، ولا يبوء بخطيئته، فهُنا المشكلة، لكن إذا اعترف بذنبه، واعترف بخطيئته، واعترف أنه مقصِّر في جنب الله، فهذه بوابة التوبة ومدخلها العظيم.

ولهذا في سيد الاستغفار قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وسيأتي معنا الحديث- قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**»؛ يعني: أعترف بأني مذنب، اعتراف العبد بأنه مذنب، مقصر، ظالم لنفسه، مفرط في جنب الله؛ هذه بوابة الخير، بوابة الصلاح، لكن المصيبة عندما يكون الإنسان ملئ بالتقصير، وملئ بالخطايا، وملئ بالذنوب، ولا يشعر أنه مقصر، بل ربما يشعر أنه أحسن الناس وأزكاهم وأصلحهم؛ هنا المصيبة.

بل إن هذا من أمارات النفاق، مثل ما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "المؤمن جمع بين إحسانٍ ومخافة، والمنافق جمع بين إساءةٍ وأمن"، يعني مسيء مقصر، ملئ بالخطايا، وآمن يرى نفسه من أصلح الناس ومن أزكى الناس، فاعتراف الإنسان بخطيئته، بتقصيره، بذنبه، هذا من أعظم الأمور في.. من أعظم المداخل للتوبة، وحُسن الإقبال، والإنابة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم هو أيضًا وسيلة مباركة لنيل مغفرة الله، ولهذا بدأ به هنا، قال: (**اللَّهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**)؛ فجعل اعترافه بظلمه لنفسه وتقصيره توسلًا إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يقول: أنا معترف يا رب، أنا معترف، أنا مقر بأنني أذنبت قصرت، أنني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا أعترف بذلك، أعترف بذنبي، أبوء بذنبي، أقر بأنني عبدٌ مذنب، ويجعل هذا وسيلةً له عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأن يغفر له ذنبه وخطيئته، قال: (**اللَّهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**).

ثم انظر عظيم التوسل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذا المقام العظيم، مقام طلب غفران الذنوب، قال: (**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ ومن يغفر الذنوب إلا الله، فهو يقر بذلك، وتأمل الحديث مع قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[سورة آل عمران، من الآية:١٣٥]؛ ذكروا الله؛ فأقروا بالخطأ، أقروا بالظلم، وأقروا أنه لا يغفر الذنوب إلا الله؛ فيلجئون إليه معترفين بأنه ربٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر الذنب، ويعفو عن السيئات مهما عظمت، ومهما كبر الذنب أليس الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال في الآية التي وصفها بعض العلماء بأنها أرجى آيةٍ في القرآن، يعني أعظم آية في باب الرجاء: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[سورة الزمر، من الآية:٥٣]؛ بدون استثناء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾؛ أي: في حق من؟ من تاب بدليل قوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن

رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ فمن تاب؛ تاب الله عليه مهما كان ذنبه ومهما بلغ جُرمه، يغفر الذنب ولا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره.

انظر إلى نداءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القدسي، يقول: «**يَا ابْنَ آَدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ**»؛ قيل: عنان السماء أي: السحاب، «**لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ استَغْفَرْتَنِيْ غَفَرْتُ لَكَ**»؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يتعاظمه ذنب، فهُنا يتوسل إلى الله بأنه لا يغفر الذنب إلا هو جَلَّ وَعَلَا، (**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ هذا الإيمان وهذا الإقرار وهذا التوحيد في قولك: (**لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ يُعطيك قوة رجاء بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وحُسن صلةٍ به، وقوة إنابةٍ إليه، وقوة طمعٍ في مغفرته ورحمته؛ لأنك من توحيدك، ومن إيمانك، ومن إقرارك أنه لا يغفر الذنوب إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وأن الذنوب مهما عظمت ومهما كبرت لا يغفرها إلا الله الذي بيده الغفران والصفح والعفو والستر عَزَّ وَجَلَّ وليس بيد أحدٍ سواه، ولهذا التوبة إليه، والاستغفار إليه، والرجوع إليه.

وذكرت لكم مرةً قصة الأسير الذي جيء به إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ماذا قال في توبته؟ قال: "اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد"، النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما سمع منه هذه الكلمة ماذا قال؟ قال: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**»، التوبة لله، والاستغفار لله، والتواب هو الله، والغفور هو الله، ومن يغفر الذنوب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا التوحيد وهذا الإيمان يُعطي قوة الصلة بالله وقوة الرجاء به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لنقف أيضًا وقفة هنا في هذا الدعاء الذي علمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صديق الأمة علمه أن يقول: (**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ الكلمة واضحة، والأسلوب من أساليب الحصر، (**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ يعني: الله جَلَّ وَعَلَا، إذا كان هذا الدعاء ونظائره أيضًا مثل ما جاء في القرآن: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٣٥]؛ إذا كان هذا الإيمان، أو هذا المعنى واضح في الآية، وواضح في الحديث، وواضح في نصوصٍ أخرى، أيصح من أحدٍ أن يطلب غفران الذنوب من غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ حتى من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيصح؟ أيصح أن يُطلب غفران الذنوب من غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ أقول ذلك مع وضوحه وجلائه لكل واحدٍ منا؛ لأن من الناس من بُلي -والعياذ بالله- بطلب المغفرة من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويستدل على ذلك بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء، من الآية:٦٤]؛ فيستدلون بهذه الآية مع أنها لا تدل على هذا المعنى لا من قريبٍ ولا من بعيد، حتى إن بعضهم لا يُصرح في طلب الغفران بطلبه من الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويصفه بأنه مغيث المستغيثين إلى آخره مما يأتي في بعض الكتب المنحرفة عن الهدي القويم، وصراط الله

المستقيم، فهنا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُعلمًا أبي بكر أن يقول: (**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ فالغفران لا يُطلب إلا من الله، ولا يُلتجئ في طلبه إلا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)؛ ما تقدم توسلات، والآن بدأ الدعاء قال: (**فَاغْفِرْ لِي**)؛ يطلب من الله عَزَّوَجَلَّ المغفرة، قوله: (**فَاغْفِرْ لِي**)؛ هذا طلب المغفرة، والمغفرة هي طلب الصفح والعفو والستر عن الذنب والخطيئة والزلة، (**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**)؛ ولاحظ هنا طلب المنَّ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في قوله: (**مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**)؛ أي: مغفرةً تمنُّ بها علي، وتتفضل بها علي، أنا مقصر، أنا كثير الذنوب، أنا كثير الخطايا، فأريد منك يا الله يا غفور أن تمن علي تفضلًا وتكرمًا بمغفرة من عندك منًا وتفضلًا.

(**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**)؛ أي: تفضل علي، ومنَّ علي، وأكرمني يا من بيده الغفران والصفح، قال: (**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**)؛ من عندك منًّا وتفضلًا وتكرمًا.

(**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي**)؛ أيضًا هنا طلب الرحمة؛ فجمع في هذا الحديث بين طلب المغفرة وطلب الرحمة، وإذا اجتمعا هذان: طلب المغفرة وطلب الرحمة؛ فتكون المغفرة متعلقةً بما مضى من أعمال العبد وفعاله، من تقصير، من ذلة، من ذنب، من خطيئة إلى آخره يطلب الغفران، وتكون الرحمة متعلقةً بما يأتي (**وَارْحَمْنِي**)؛ بمعنى: أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، بأن أُسدد وأوفق، ويكون حليفي في مستقبل الصلاح والاستقامة والبعد عن الذنوب والخطايا، فتعلق قوله: (**فَاغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي**)، بماضي العبد ومستقبله، ما مضى من أيامي وأوقاتي وأعمالي أطلب منك يا الله أن تغفر لي، وما استقبل من حياتي أسألك أن تُدخلني برحمتك في عبادك الصالحين؛ فيكون السداد، والتوفيق، والصلاح، والاستقامة، والمعافاة، حليفي فيما استقبل من أيام حياتي.

قال: (**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)؛ ختم هذا الدعاء بالتوسل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذين الاسمين العظيمين: (**الْغَفُورُ**)؛ أي الموصوف بالمغفرة، (**الرَّحِيمُ**)؛ أي الموصوف بالرحمة، فتوسل إلى الله جَلَّ وَعَلَا بهذين الاسمين العظيمين.

وهُنا القاعدة في باب الدعاء -وهي واضحة في نصوص الكتاب والسنة-: أن من المناسب في حق من دعا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بدعوةٍ أن يذكر فيها من الوسائل من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته ما يكون مناسبةً لحاجته ومطلوبه.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:٨٩]؛ هُنا طلب رحمة وطلب مغفرة؛ فناسب المقام أن يُتوسل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذين الاسمين العظيمين: الغفور الرحيم.

وهو يتوسل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذين الاسمين، ويؤمن بما دلَّ عليه من ثبوت صفات الكمال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والحديث فيه دلالة أن أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما أنها أعلامٌ دالةٌ على ذاته تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهي أوصافٌ دالة على معاني.

فالغفور من أسمائه، وهو يدل على ثبوت المغفرة صفةً لله، وثبوت أيضًا حكمها أنه يغفر الذنوب، والرحيم اسمٌ من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يدل على ثبوت الرحمة، وثبوت حكمها يرحم من يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولهذا قال: **(فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)**.

هذه دعوة عظيمة مباركة علمها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي دعوة يحسن بالمسلم ويُستحب له أن يُحافظ عليها، أن يدعو في أوقاته بين وقتٍ وآخر بهذه الدعوة العظيمة، وأن يُحافظ عليها في صلاته إما في سجوده أو قبل أن يُسلِّم.

المتن:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**» أخرجه أصحاب السنن الأربعة بإسناد صحيح.

الشرح:

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث -حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **(الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ)**؛ وجاء في بعض الروايات: ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [سورة غافر، من الآية:٦٠]؛ الآية فيها تسمية الدعاء عبادة؛ لأنه ختمها بعد أمره بالدعاء بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ أي عن دعائي، فالآية واضحة الدلالة على أن الدعاء عبادة.

والحديث صريحٌ في ذلك، قال: **(الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ)**؛ وقوله: **(الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ)**؛ مثل قوله: «**الحَجُّ عَرَفَة**»، ومثل قوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةَ**»، فإن مثل هذه الألفاظ تبين مكانة هذا الأمر.

فهُنا **(الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ)**؛ يدلنا على مكانة الدعاء من العبادة، وأنه منزلته فيها المنزلة العلية والرتبة الرفيعة، فالدعاء عبادة من أعظم العبادات وأحبها إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب من عبده أن يدعوه، بل جاء في الحديث الصحيح: أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيهِ**»، هذا يدلنا على ماذا؟ يدلنا على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب من عبده أن يدعوه، يحب أن يسمع من عبده دعائه ومناجاته.

وفي الحديث الآخر قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنْ الدُّعَاءِ**»، وهُنا أيضًا تأمل حُب الله عَزَّوَجَلَّ للدعاء حبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للدعاء وكرم الدعاء عنده وعظيم منزلته لديه، مع أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تنفعه طاعة من أطاع، دعوت الله أو لم تدعه لا يضره شيء ولا ينفعه تَبَارَكَ وَتَعَالَى. لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى، أنت الفقير والله هو الغني، أنت المحتاج إلى الدعاء، أنت المُحتاج إلى الدعاء في كل شأن من شؤونك وفي كل حركة من حركاتك، وفي كل أمرٍ من أمور، أنت فقير إلى الدعاء.

وهُنا يأتي العجب أن العبد مع قوة افتقاره وشدة احتياجه للدعاء من كل وجهٍ في جميع أحواله ثم مع ذلك يمتنع عن الدعاء، أو يستهين بالدعاء، أو يستكبر عن الدعاء، كما في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾؛ فهذه مُصيبة عظيمة عندما يُضيِّع العبد هذه العبادة العظيمة التي هو أحوج ما يكون إليها في كل شأنٍ من شئونه.

أنت تحتاج إلى دعاء الله في صلاح دينك، وصلاح دنياك، وصلاح أُخراك، ما يمكن يصلح لك شيء في دينك أو دُنياك أو أُخراك إلا بالتوجه إلى الله، وانظر هذا في الدعاء الذي كان يدعو به نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو في صحيح مسلم كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: «**اَللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي اَلَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ اَلَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي اَلَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ اَلْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاَلْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»، ما يمكن أن تصلح دنياك، ولا يمكن أن تصلح أُخراك، ولا يمكن أن يصلح دينك إلا إذا أصلحه الله لك؛ فأنت محتاج إلى أن تدعوا الله عَزَّوَجَلَّ وأن تُلح عليه بالدعاء.

ولهذا قال من قال من العلماء: "الدعاء مفتاح كل خيرٍ في الدنيا والآخرة"، أيضًا قال أحد العلماء في توضيح هذا المعنى: يقول ما معناه: "تأملت في أبواب الخير فإذا هي كثيرة: الصلاة، الصيام.. إلى آخره. أبواب الخير كثيرة، وجدت أن الخير كله بيد الله"، فأدركت وعلمت أن مفتاح كل خير الدعاء، إذا تُريد أن تُصلي أو تصوم أو تحج أو تتصدق أو تبر والديك أو تقوم بأي عمل من أعمال الخير، أو أردت لنفسك الرزق والعافية والصحة إلى غير ذلك فكل ذلك بيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فالدعاء مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة.

الدعاء مكانته من الدين عظيمة، ولا أدل على هذه المكانة من قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هنا في هذا الحديث العظيم قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»؛ وهُنا يجب أن نعلم أمرًا عظيمًا يدل عليه الحديث في قوله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»؛ العبادة لمن؟ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة البينة، من الآية:٥]، العبادة لله وحده، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٥٦]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٦]؛ العبادة حقٌّ لله جَلَّ وَعَلَا.

وهُنا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»؛ ماذا نُحصل من هذه الدلالة؟ من صرف الدعاء لغير الله يكون صرف ماذا؟ صرف العبادة لغير الله، ومن صرف العبادة لغير الله ما شأنه؟ أشرك بالله، ولهذا جاء في القرآن: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٥-٦]؛ فدعاء غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى شركٌ بالله؛ لأن الدعاء عبادة، والعبادة حقٌّ خالصٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أذكر مرةً كنت جالسًا في مسجد بعد صلاة المغرب أقرأ القرآن، وكان إلى جنبي رجل من الزوار مادًّا يديه ويدعو، ثم في أثناء استمراره في الدعاء أخذ يبكي وتسمع له نشيجًا وهو يبكي، فشدَّني بكائه وخشوعه، فأخذت أستمع إليه أوقفت القراءة وأخذت أستمع إلى بكائه وإلى خشوعه، ثم رفع صوته قليلًا بالدعاء الذي كان يدعو به، رفع صوته وإذا بي أسمعه وهو يدعو مادًّا يديه يقول: يا رسول الله! يا رسول الله! ويسأل حاجته، يبكي ويدعو الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويسأل حاجاته، يذكر أمورًا من حاجاته ويُنادي الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: يا رسول الله كذا! يا رسول الله! ويبكي ويُناجي ويُنادي الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويعرض عليه حاجاته. خشوع وبكاء ولكن عبادة مصروفة لمن؟ لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مصروفة لغير الله.

حقيقةً التفت إليه وكان بيني وبينه حوار وحديث دار إلى مدة نصف الساعة، لا غرر لكم بطوله، لكن أعطيكم خلاصته: أخذت أتحدث منه أولًا فاتحته بالسؤال عن صحته وأولاده وبلده ومن أين جئت؟ ولعلك لم تتكلف حتى أطمئن إلى الحديث معي وارتاح للحديث، ثم أخذت أسوق له آيات وأحاديث عن فضل الدعاء، ومكانة الدعاء، وأيضًا عن فضل الخشوع وفضل البكاء، فالتفت إلي واستدار، وأخذ يستمع.

ثم انتقلت معه إلى خطوة أخرى عميقة في الموضوع، وبدأت أُحدثه عن أن الدعاء حقٌّ لله، وأن الدعاء عبادة، وأنه لا يُصرف الدعاء إلا لله، وأخذت اقرأ عليه من القرآن آيات عديدة تزيد على العشر آيات، من ضمنها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾... إلى آخر الآية.

وكذلك قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٢]، وكذلك قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٥٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [سورة فاطر، من الآية:١٣]، إلى غيرها من الآيات.

وأخذت أعرض عليه بعض الأحاديث مثل: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»، وقلت له: كان نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أُوتي بمريض يقول: «**اللَّهُمَّ ربَّ النَّاسِ، أَذْهِبِ الْبَأسَ، واشْفِ، أَنْتَ الشَّافي لا شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**»، وأخذت أذكر له جملة من أدعيته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولما انتهيت، وأحسب أن الأمر اتضح تمامًا واستبان وظهر بُحججه وبيناته من كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأردت أن أطمأن إلى من أتحدث معه هل استوعب الأمر، وفهم المقصود، واتضحت له الآيات واستبان له الحكم، أم لا يزال ملتبسًا عليه الأمر؟

فوقفت عن الحديث وقلت له: قلت له سؤالًا هو في الحقيقة طرحه خطأ، لكنني طرحته أريد أن أعرف: هل أتضح له الأمر أو لا؟

قلت له: يا حاج ما رأيك في هذا الكلام؟ أيش رأيك في هذا الكلام الذي قلته لك؟

أتدرون ماذا قال لي؟ رفع نظره إلي بدهشة! قال: آيات وأحاديث تقرأها علي وتقول: أيش رأيك؟ أيوا الله، يعني ما في رأي، آيات وأحاديث ما فيها رأي، آيات وأحاديث قرآن وسُنة ما في رأي، وحقيقة ذكرني بكلمة للشافعي، سأله أحد الأشخاص عن حكمٍ ما، وقرأ عليه الشافعي الحديث الذي يدل على الحكم، فقال الرجل: وما رأيك أنت؟

فغضب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: هل رأيتني خارجًا من كنيسة؟ هل رأيتني معلقًا الصليب في صدري؟ هل رأيت زجاجة الخمر في يدي؟ أقول لك: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: ما رأيك؟!

فأنا حقيقة السؤال فيه شيءٍ من الخطأ، لكنني دفعني قوة الرغبة في أن أعرف هل الرجل اتضح له المقصود أم لم يتضح، فقلت له: ما رأيك؟ فرفع نظره لي بدهشة وقال: تقول لي ما رأيك وأنت تقرأ آيات وأحاديث؟! كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فلا زلت معه مصرًا أن أعرف هل اتضح له الأمر أو لا؟

فقلت له: اسمح لي! أني سمعتك قبل قليل مادًّا يديك وتدعو الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من دون الله، ولا زال السؤال قائمًا: قلت له: ما رأيك؟ قلت لازال سؤالي قائمًا: ما رأيك؟ أنا سمعتك الآن تدعو الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مادًّا يديك وتقول: يا رسول الله كذا إلى آخره.

فما رأيك الآن بعملك مقارنًا بهذه الآيات والأحاديث، أتدرون ماذا قال لي؟ سمَّى لي بلده وقال لي: أنا من بلد كذا، ما أحد قال لي الكلام هذا، يعني الكلام اللي أنت عليه الآن ما أحد أخبرني به، إذًا ماذا أخبروه في بلده؟

هنا يا إخوان نتذكر حديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما قال: «**إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلُّونَ**»، هُنا المشكلة، تجد بعض الناس يُبتلى في بلده بأئمة ضلال يُحسنون له الشرك، ودعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله ويسمونه بغير اسمه، كثير من الأشياء روَّجها بعض دعاة الباطل بأن سموها بغير اسمها، قالوا عن الرشوة ماذا؟ إكرامية، قال: هذه إكرامية هذه، ويعطيه يقول: هذه إكرامية، الربا قال: فوائد، والخمر قال: مشروبًا روحيًا.

أشياء كثيرة يغيرون اسمها، الشرك قال: هذا توسل، هذا توسل، أو هذه شفاعة، أو أشياء من هذا القبيل غيروا أسمائها فروَّجوها على العوام.

أرأيتم لو أن أحد هؤلاء دعاة الباطل جاء إلى أحد العوام وقال له: لا بأس أن تقول في دعاك يا رسول الله أغثني وهذا نوع من الشرك، يجوز أن تقول: يا رسول الله أغثني هذا نوع من الشرك يقبل؟ لا يقول: هذه وسيلة ما يقول هذا شرك، هذه شفاعة، يُغير، فالعامي تختلط عليه الأمور وتلتبس عليه عندما يأتيه من أشياخ الضلال ودعاة الباطل.

والله آلمني واقعه وواقع كثيرين من أمثاله. قال لي بكل حُرقة: أن من بلد كذا ما أحد قال لي الكلام هذا.

يعني من ينشأ عليهم في بلده ممن يعلمونه ويُبينون له الدين، يبينون له أمورًا على غير بابها، لو لم يأتي في هذا الباب إلا قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»؛ لكان وحده كافيًا أن اليد لا تُمد بالدعاء إلا لمن؟ إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي حديث سلمان الفارسي يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**».

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**» رواه مسلم في صحيحه.

الشرح:

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث -حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- قال: (**كان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»**)؛ هذا الحديث من الدعوات العظيمة الجامعة التي كان يدعو بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من جُملة تعوذاته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- بالله عَزَّوَجَلَّ.

وباب الاستعاذة بابٌ عظيم وواسع من أبواب الدعاء، والعلماء منهم من أفرده بالتصنيف لسعته، ومنهم من خصَّه بكتبٍ خاصة في المصنفات الجامعة، مثل ما صنع النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه [**السنن**] عقد أو وضع كتابًا نفيسًا جدًا للغاية، أنصح بقراءته سمَّاه كتاب [**الاستعاذة**]، جمع فيه جُملة طيبة مباركة من تعوذات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالله.

وجاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في التعوذ بالله عَزَّوَجَلَّ أنواعًا كثيرة من التعوذات يحسن بالمسلم أن يقف عليها، وأن يعرفها، وأن يتعلمها، وأن تكون من جُملة تعوذاته وإلتجاءاته واعتصامه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن الكتب النفيسة جدًا في هذا الباب كتاب [**الاستعاذة**] لابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد طُبع بعنوان: [**مصائب الإنسان من مصائد الشيطان**] أو قريبًا من هذا المعنى، واسمه [**الاستعاذة**]؛ لأن فصل في هذا الكتاب الاستعاذة وأحكامها، وضوابطها، ومعناها، وأمور كثيرة جدًا تتعلق بها.

قال هُنا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ**)؛ أي: من أن تزول نعمتك علي، ما أنعمت به علي، هُنا (**نِعْمَتِكَ**)؛ مفرد مضاف، فهو يعم ويتناول نعمة العافية، نعمة الصحة، نعمة الدين، نعمة الولد، نعمة الأمن.. إلى غير ذلك من النعم.

فهذه دعوة عظيمة يسأل فيها النبي ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويتعوذ به من أن تزول النعمة، والنعمة من الله كما قال الله في القرآن: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل، من الآية:٥٣].

والنعمة من الله، وللنعمة جالب وحافظ وهو شكر المُنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله في القرآن: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية:٧].

قال العلماء: الشكر جالبٌ للنعم المفقودة وحافظٌ للنعم الموجودة، وقال العلماء أيضًا: النعمة إذا شُكرت قرَّت، وإذا كُفرت فرت، يعني لا تبقى.

فقوله هنا: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ**)؛ هذا أيضًا يتضمن التوفيق للشكر أليس كذلك؟! لأن العبد إذا لم يكن شاكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على نعمه كان عدم الشكر سببًا لماذا؟ لزوال النعمة.

فهذا أيضًا يتضمن طلب الشكر على النعمة، وأيضًا طلب استعمال النعمة فيما خُلقت له، ووُجدت له، فيصرف النعمة في بابها.

وقوله في هذا الدعاء: (**وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ**)؛ أي: تحولها عن العبد وانتقالها، والعافية خير ما أُعطيه العبد، ومن نال العافية فقد نال الخير، وقد مرَّ معنا في دعوة العباس التي علمه إياها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلْ اللهَ الْعَافِيَةَ**».

فالعافية نعمة عظيمة ومِنة كبيرة على عبده، وتحولها عن العبد من أخطر ما يكون عليه ومن أضر ما يكون عليه.

والعافية تتحول عن العبد بذنوبه، وخطاياه، ومثل ما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة"، قال: (**وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ**).

(**وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ**)؛ النقمة الانتقام، والفجاءة هو أن يأتي الانتقام فجأة، ويبغت الإنسان ويأتيه مباغتة ويدهاه، وذلك بسبب إجرامه وآثامه، وتعدد خطاياه وذنوبه، وتقصيره في جنب الله.

قال: (**وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ**)؛ والله عَزَّوَجَلَّ يُمهل ولا يُهمل، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود، من الآية:١٠٢]؛ فهنا فيه التعوذ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من فجاءة النقمة.

ثم جمع ذلك كله بخاتمة هذا الدعاء في قوله: (**وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**)؛ وهذا من الجوامع في كلم النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، (**وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**)؛ أي أن أفعل أو ارتكب أو أقع فيما يسخطك، ويكون سببًا لحلول عقوبتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك إلى غير ذلك. فقوله: (**وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**)؛ هذا من الدعوات الجامعة.

فهذه دعوة كان يدعو بها النبي -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ويلتجئ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، يسأل الله أن يُعيذه من زوال النعمة، ويسأل الله أن يُعيذه من تحول العافية، ويسأل الله أن يُعيذه من فجاءة النقمة، ويسأل الله أن يعيذه من جميع سخطه.

ثم ترى في الناس -ولا بد من الإشارة إلى هذا- ترى في الناس من يجعل التجاءه إلى الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويصفه بأنه مفرج الكربات، ومغيث المستغيثين، ومجير.... إلى آخره، هل يستقيم اعتقاد ذلك في الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع ما نراه من عبوديته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتذلله؟!

نحن نستفيد من هذا الدعاء ونظائره أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدٌ، والعبد أكملوا...

أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدٌ والعبد لا يُعبد، لا يُلتجئ إلى العبد، وإنما يُلتجئ إلى الرب الذي بيده أزمة الأمور.

فانظر هذه الدعوات التي كان يدعو بها عبد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قارن ذلك بما يفعله بعض الناس عندما يلتجئون إليه في تفريج الكربات، في طلب العافية، في طلب النعمة، في طلب الصحة، إلى غير ذلك من أمور التي لا يطلبها عبيد الله وأرفعهم قدرًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يطلبونها إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يرزقنا التوحيد الخالص، والإيمان الراسخ، وأن يُعيذنا من الفتن كلها ما ظهر منها وما بطن، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميعٌ قريبٌ مجيب.